على الغلاف

شعرة معاوية

إيلي حنا

لم تغطّ الدماء المشهد كاملاً. مساحة صغيرة خلقها مقاتلون متواجهون كانت كفيلة بنزع صفة «خط نار» عن مناطق عديدة. قد تلازم الحرب في سوريا كل زاوية... لكن بمرور السنوات الأربع، ابتُدعت مساحة على الهامش. كانت ضيّقة، لكن كفيلة في جمع «عدوّين». التواصل بين عناصر من الجيش ومقاتلين في الضفة المقابلة ليس جديداً. أمر «تطوّر» إلى مصالحات شعبية ووطنية حافظت على أرواح وممتلكات. سوريا في حاجة أكثر من أي وقت مضى لهذه المصالحات، ولاحتضان الجنود (الفارّين) والمواطنين الذي حملوا السلاح. الدول تستوعب «الفارّين» و«المستسلمين» و«التائبين» و«العائدين».

لا مكان في عملية إعادة بناء «سوريا الواحدة» للتخّوف من ردّ فعل شعبية في الحارة الفلانية أو طلب القصاص من هارب إلى الريف البعيد. لا يزال في أماكن نزوح تُسمع عبارات تتصّف بالعنصرية. «النسوان والأولاد هون والرجال عم يقاتلو الجيش»، يقول البعض. هي ردود فعل «طبيعية» لكن لا تخدم «المصلحة العامة». عدد كبير من العناصر السورية في المعارضة المسلحة يجب سماع مطالبهم إن كانت تحت سقف الدولة وجيشها. شهدنا نماذج كثيرة لحوارات بين مقاتلين سوريين على مختلف الجبهات، ولمصالحات متفرقة. هؤلاء لم ينتقلوا من ميليشيا إلى ميليشيا، بل من ميليشيا إلى الدولة المسؤولة عن 185000 كلم مربع.

في حرب ضخمة بوجود آلاف المسحلين المدربين من عشرات دول العالم، أصبحت حرب سوريا (كل سوريا) في مواجهة سرطان متشعب قلبه في أرض الشام.

هي «شعرة معاوية» التي لا تزال تجمع بين السوريين. شعرة من هذا النوع لا يحتملها التكفيريون الأجانب الحرصاء على قطع أي تواصل بين السوريين. في النهاية، هي حرب تختلط فيها الأيديولوجيا مع البزنس والمصالح الإقليمية والدولية. فيها الكثير من المستفيدين من اقتتال السوريين ومن المتربحين من دمائهم.

بارقة أمل، اليوم، أن لا تكون كل بندقية في يد سوريّ هي آلة قتل دائمة. يوم تنتهي هذه الحرب الدموية بطرد أو قتل آخر «مستورَد» بالوكالة إلى سوريا، أمام السوريين طريق طويل شائك لإبراز صورة هويتهم مجدداً. «صيغة» لا تعني استيراد واحدة من نوع طائف لبنان أو عراق بول بريمر.

في سوريا الدولة الموحّدة يعيش فيها المواطنون تحت بند واحد: مواطنون متساوون من حوران إلى عفرين.

«طلاقيات» أخرى يحدثها جنود في الجيش السوري ومسلحون في جدار المواجهة بينهم... «طلاقيات» ليست للرصد والقنص والرصاص، بل للكلام وإيصال رسائل بإمكان وقف إراقة دماء بعضهم بعضاً

السوريون على الجبهات
رصاص... وكلام

زياد غصن

فيما كان كثيرون في منتصف عام 2013 يذخرون بنادقهم بمزيد من الطلقات استعداداً لجولة جديدة من القتال، كان العقيد مصطفى شدود من مرتبات إدارة الدفاع الجوي يشق طريقه أعزل نحو أحد متاريس المسلحين في ريف دمشق، طالباً الحوار معهم لوقف إراقة دماء السوريين وتهديم البلاد.

خطوة الضابط الذي قضى شهيداً في ما بعد برصاص مسلحين، شجعت كثيرين على تكرار المبادرة على أكثر من جبهة، بعضها وجد طريقه إلى الرأي العام عبر كاميرات الهاتف المحمول وشبكات التواصل الاجتماعي، وبعضها الآخر ظل بعيداً عن الأضواء بانتظار من يفتش عنه.

وفي كلا الحالتين كانت الرسالة المراد إيصالها: ليس الرصاص وحده الناظم لعلاقات السوريين على جميع جبهات القتال... فثمة فسحة ما للكلام والرسائل عنوانها سورية تتسع للجميع.

يروي ضابط في الجيش السوري كان عائداً للتو من إحدى جبهات القتال، أنه خلال عملية اقتحام لمنطقة سكنية توجد فيها مجموعات مسلحة عدة، استشهد أحد العناصر، ولم يتمكن زملاؤه من سحب جثته، إلى أن جاءت مع تراجع حدة الاشتباكات سيدة كبيرة في السن، وأصرّت على السماح لها بالدخول إلى المنطقة، لتتفقد منزلها وإخراج بعض متعلقاتها الشخصية. «فما كان مني إلا أن حمّلتها رسالة إلى قائد المجموعة المسلحة، وهو سوري، مفادها رغبتنا في وقف إطلاق النار ليتاح سحب جثث الطرفين»، يضيف الضابط.

غابت السيدة لبرهة من الزمن ثم عادت لتطل من بعيد، وهي تجر خلفها لوحاً معدنياً عليه جثمان الجندي الشهيد وتسلمه للضابط، وعندما همّت السيدة لتعود أدراجها لتطمئن على منزلها، حمّلها الضابط رسالة أخرى كانت هذه المرة عبارة عن سُبحة مكتوب عليها أسماء الله الحسنى هدية لقائد المجموعة المسلحة قائلاً له: إن ما يجمعنا أكثر بكثير مما يفرقنا.

> ما كان يصوره الإعلام منذ بداية الأزمة كمحرمات سقط مع أول مصالحة

بعد مضيّ فترة من الزمن على تلك الحادثة، كسر الرجلان حاجز الرصاص ليتبادلا من بعيد حديثاً عن «عبثية مواجهة السوري لأخيه السوري»، ويخلص الضابط في حديثه إلى أن «المشكلة في النهاية تكمن في موقف المقاتلين الأجانب والسوريين المنضوين تحت عباءة المشروع التكفيري، الرافضين لأي حوار بين السوريين، بدليل مجاهرتهم علانية برفض مشاريع المصالحات في بعض المناطق، وقتلهم كل من يسير في ركابها». وهذا ما يفسر إصرار قيادة الجيش على مطلبها الدائم في جميع مشاريع المصالحات بطرد المقاتلين الأجانب، وإخراجهم من المناطق التي تشملها المصالحات.

ما كان يصوره الإعلام منذ بداية الأزمة كمحرمات، سقط مع أول مصالحة طبقت على أرض الواقع في منطقة برزة البلد في دمشق. هناك كان مستخدمو طريق برزة ـ التل من المدنيين، يسألون أنفسهم بحسرة وألم، وهم يمرون على حواجز الطرفين التي لا يفصل بينها سوى بضعة أمتار: إذا كان بإمكانهم أن يتلاقوا بعضهم مع بعض هكذا، فلماذا فعلوا بنا ما فعلوه؟

حوارات من خلف المتاريس

أربع سنوات من الحرب السورية. والمقاتلون يتمترسون متواجهين على مسافات قريبة سمحت بتبادل الأحاديث في ما بينهم. أحاديث تتراوح بين الشتائم والمفاوضات ومحاولات إقناع تثمر أحياناً. هي لغة يتقنها السوريون على جانبي الصراع. ويحاول المسلحون الأجانب التشويش عليها

مرح ماشي

تحت مبدأ «إن جنحوا للسلم فاجنح لها» دخل الجيش السوري بلدة حلفايا، في ريف حماة الغربي، بعد هروب عناصر «جبهة النصرة» باتجاه ريف إدلب الجنوبي، وهروب المسلّح غير الشهير «أبو مشحم» معهم. معارك عنيفة دارت لأيّام طويلة تخلّلها الكثير من المواقف الحرجة، والمُضحكة أحياناً، جرّاء قرب المسافة بين المتحاربين. «أبو مشحم» الذي لم يتجاوز 18 عاماً من العمر كان موجوداً خلف ساتر مواجه لمقاتلي الجيش السوري، مستعدّاً لتنفيذ مهمّته التي يقول إنّها «تنغيص حياتهم». لكن الأيّام كانت طويلة، وكان لا بدّ، كما هي العادة بين المتاريس المتقابلة، من أن ينشأ شيء من التواصل بين جنود الجيش وأبو مشحم. يروي أحد الجنود حكايته مع أبو مشحم، فيقول: «كان يعمل، أحياناً، بعدما يفرغ من تبادل الشتائم مع الجنود، على تبديل ترددات اللاسلكي والتشويش عليها لتعطيل الاتصالات». ويتابع الجندي: «صرنا في نهاية المطاف نتحاشى الخلاف معه، فهو يعطينا إشارات من خلف المتراس. وتطوّر الأمر في ما بيننا حتى بتنا نناديه أحياناً ساخرين (أبو مشحم فقدنا الاتصال مع العمليات دخلك خبرهن يتصلوا فينا. أبو مشحم خبّر حسن يحكي مع العمليات) وكان أبو مشحم يستجيب لنا، في محاولة سخرية مضادة، ويتصل بحسن ويخبره عن ضرورة الاتصال بالعمليات». أخيراً هرب أبو مشحم، الآتي من حلب، مع من هربوا إلى خان شيخون، في ريف إدلب، فافتقده جيرانه المقاتلون.

> من خلف المتاريس كان أحمد يحاول إقناع مروان بأن الأجانب هم الأعداء

بحسب ما يرويه الجنود عن تلك الأيام، فإنّ الأحاديث بينهم وبين المقاتلين في المقلب الآخر كانت تبدأ بالاتهامات الطائفية، تليها الشتائم، قبل أن يتبع ذلك محاولة كلّ طرف إقناع الآخر بصوابيّة موقفه.

علي، الجندي الذي قاتل في ريف حماة الشمالي، يروي كيف حاور مسلحين سوريين، على «المحرس» الخاص بقطاعه، ويشرح أنّ «من الممكن إيجاد أمور للكلام عنها مع السوريين، حتى لو كانوا مسلحين. لكن المسلحين الأجانب كانوا عرضة لسخريتنا وشتائمنا ورصاصنا طوال الوقت». ويؤكّد أنّ الأمور تبدأ بالشتائم دائماً كون كلّ طرف منهما يرى في الآخر عدوّاً، ولكن الوصول إلى نقاط مشتركة هو أمر متوقع في كلّ مرة، ويذكر علي أنّ